دار الأشراف

عن واثلةَ بنِ الأصقَعِ قال: قال رسولُ اللّه ﷺ :

(عليكُمْ بالشّامِ، فإنَّها صَفوةُ اللّهِ من بلادِه، يَسوقُ إليها صَفوتَهُ من عِبادِه، عليكُمْ بالشّامِ، فإنَّ اللّهَ تَكَفَّلَ لي بالشّامِ وأهلِهِ) .

وروى الإمام أحمد قوله صلى اللّه عليه وسلم :

((هاهُنا تُحشَرون، هاهُنا تُحشَرون، هاهُنا تُحشَرون - ثلاثاً - رُكباناً، ومُشاة، وعلى وُجوهِكم : فأشارَ بيدِه إلى الشّامِ فقال: إلى هاهُنا تُحشَرون)) .

تكامل الأوصاف في دار الأشراف

شامخٌ مُذْ تأسَّسَا   مَزَجَ الحُبَّ بالأسَى
حِكاياتٍ مرَّتْ بِهِ   عاشَهَا مَنْ تَنَفَّسَا
عِطرَ زَهْرٍ في أرضِهِ   في النّواحي تَمَتْرَسَا
دارُ أشرافٍ مَنْ بِهِمْ   تُرْبُها قَدْ تَقَدَّسَا
قَدْ تَوالَوا فمِنهُمُ   مَن بَناها وأسّسا
مِنهُمُ مَن زانَ الأمو   رَ صلاحاً وسيَّسا
منهُمُ أهلٌ للتّقى   بالمعاني تمرَّسا
دارُ علمٍ فعِلمُهُمْ   بالزّوايا تكدّسا
دارُ دينٍ وحكمةٍ   بالمعالي تلبَّسا
لا تَعجَّبْ مِنْ سِحْرِهِ   خُلِقَ الحُسْنُ أكيَسَا

لوحة للقائد عبد القادر الجزائري
للفنان الفرنسي آنج تيسييه
في متحف فرساي ١٨٥٢

الحضارة . .

كلمةٌ صغيرةٌ بحروفها . . كبيرةٌ في معانيها . . عظيمةٌ بدلالاتها . .

إنّها مزيجٌ من الأصالة والجمال ، خليطٌ من الرّوعة والخيال . .

تجمعُ الفنَّ وتختصرُ المسافةَ وتختزلُ التّاريخَ . .

فكيف إذا كانَ التّاريخُ قد اجتمعَ في دارٍ دمشقيّةٍ ؟ !

دار في دمشق الياسمين وفسطاطِ المسلمين، في أرض المحبّةِ والسّلام؛ بلادِ الشّام . .

أرضٌ ألقى التّاريخُ فيها رِحالَه، بعد أن تردّدَ عليها كثيراً، وتركَ فيها معالِمَ عديدة، تحكي قصّةَ حضاراتٍ متلاحقةٍ؛ نبعَتْ من الماضي العريق، وصبَّتْ في زمن الحداثة

حضارات أنجبَتْ ذلكَ التّراث، وخلّفَتْ لنا هذا الميراثَ . .

دار توارثَتْها الأجيالُ، وتعاقبَتْ عليها السّنين، مرّ عليها العظماءُ، وتدارَسَ فيها العلماءُ، سكنَها أطهارٌ من آل البيت، وامتلكَها شيوخُ المجاهدين، اجتمعَ فيها القادةُ، ولجأ إليها أولو الحاجةِ، وزارها الملوكُ، ورغب فيها الأمراءُ . .

دار جمعَتِ المجدَ من أطرافه، إنّها دارُ الأشراف، عادت لتروي قصّةَ ذلك المجد . . .

من أرض الجزائر، في ولاية معسكر أخذ القائد استراحةَ المحارب، مترجّلاً عن صَهوة جواده، ملتفّاً بعَلَمه الأخضر، لم يجثُ على رُكبتَيه فلم يُهزَم، ولكِنْ للقَدَر شؤون.

نظر إلى القوم، وقال: (يا أهلَ الجزائر، هذا جهدي لم أدّخره، ولكن لنا يومٌ نظفَرُ به ونلتقي) . هذا ما قاله الأمير عبد القادر الجزائري، إنّه: عبد القادر بن محيي الدّين بن مصطفى بن محمّد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد بن محمّد بن عبد القويّ بن يوسف بن أحمد بن شعبان بن محمّد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد اللّه الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن ابن فاطمةَ الزّهراء بنتِ محمدٍ رسول اللّه ﷺ وزوجِ عليّ بن أبي طالب ابن عمّ الرّسول الأعظم ﷺ .

وأمُّه الزّهرةُ بنت الشّيخ سيدي بودومة؛ شيخِ زاويةِ حمام بوحجر، وكانت سيّدة مثقّفة.

ولد الأمير حوالي ٦ أيّار، وقيل: ٦ أيلول عام ١٨٠٨ م بقرية القيطنة في ولاية معسكر، إنّه شيخ المجاهدين من أحفاد رسول اللّه ﷺ ، إنّه الأمير والقائد المحارب، الشّاعرُ والفيلسوف والعالِم، مؤسِّسُ الدّولة الجزائريّة الحديثة، قاد نضالاً وحرباً طويلة مع الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر، بُويِعَ أميراً وحاكماً للدّولة بين عاميّ (١٨٣٢– ١٨٤٧) م، إلى أن تمّ أسْرُه في آخر معاركه بعد أن نفدت ذخيرتُه.

لم يطلب من عدوّه إلا أن يبدله بروح الجزائر عبقَ الياسمين (جِلّق الشّام)، نعم دمشق: (دارميسق) الآراميّة، و (داماسكي) في مملكة إيبلا، و (دمشقا) الآشوريّة، و (تيماشكي) الفرعونيّة، و (الشّام) العربيّة، و (شام شريف) العثمانيّة، والفيحاء وفسطاط المسلمين . . .، لم يغادر اسمُها رُقُمَ التاريخ وجدرانَ المعابد ورسائلَ الملوك، إنّها أقدم عاصمة مأهولة من بعد نوحٍ عليه السّلام، موطنُ الكلدانيين والآشوريين واليونان، وحاضرة الرّومان؛ عتبةُ الفاتحين، ومستقرّ الصّحابة، ووصيّة الرسول الأعظم ﷺ ، قبلةُ الصّوفيين؛ شام شريف.

إنّها درّةُ التّاج الأمويّ، ومهبطُ النسر الّذي بسط جناحيه من الصّين إلى إسبانيا، منها انطلقوا لينشروا المحبّة والسّلام، وينقلوا البشريّة من المادّية إلى الروحيّة، فلن يغادر عينيك أثرُ الحضارة من شرق الأرض إلى مغربها؛ في وسط آسيا والجزيرة العربية وإسبانيا، ولا يزال العالَم يُجمع حتّى الآن أنها نتاج فترة ازدهار وعمران؛ كالجامع الأمويّ ومسجد قرطبة ومدينة الزّهراء وقصور ملوك الأندلس، فإن أضعتَ الدليل دلّتكَ شجرةُ الكبّاد والنارنج وزهرة الياسمين، لتقول لك: إنّي نسخة عمّا هو في العاصمة دمشق، فتنعَّم بالنسخة، وتخيّل الأصلَ في جِلّق الشّام.

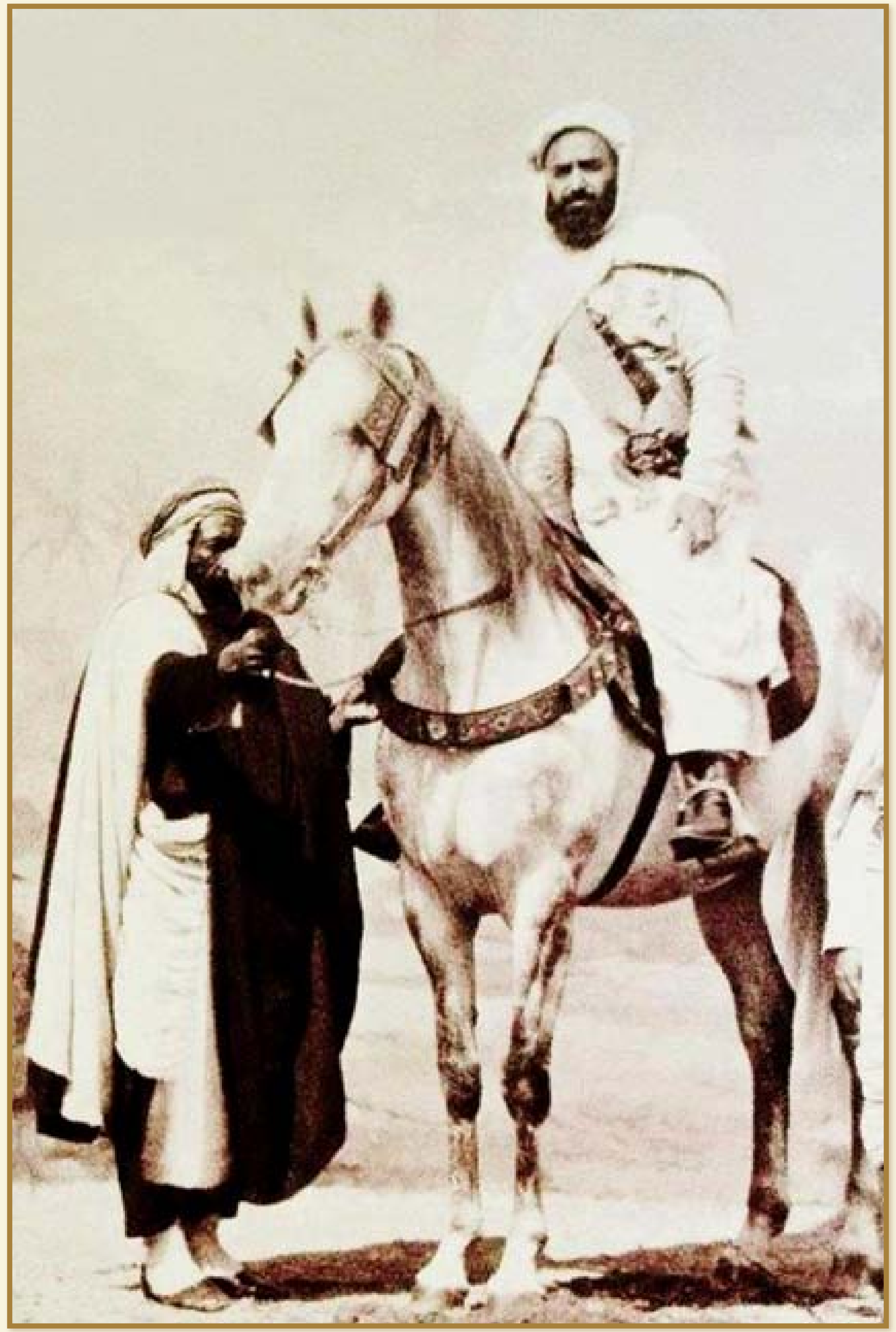

وصل الأمير إلى دمشقَ كطائر السّنونو باحثاً عن عشّ بها، فأرشدوه إلى دار في حيّ العمارة، فسألَهم: لماذا هُنا، فالشّام كلّها ياسمين؟ لأنكَ أيها الأمير ستقطن في قصرٍ يروي لكَ قصةَ تاريخ وحكايةَ مَن سبق، لم تغِبْ عنه حضارة ولا أصالة، إنّه كتاب يروي سيرة دمشق، وبسُكناك به ستزيد فيه فصلاً، وسيحفظ قصّتك كلّ حجر من الدّار؛ ليرويَها لمن يأتي بعدك.

اصعَدْ إلى سطح الدّار لتبدأ سماعَ الحكاية . . .

انظُرْ إلى مَرقَد جارتك هُنا، مَن . . ؟

إنّها بنت أخ جدّك الحسن؛ رقيّةُ بنت الحسين، حفيدة رسول الله ﷺ ، تُؤلم كلّ ذي قلب حنون، وكلّ من يحمل المعاني السامية للإنسانيّة، ويستطيع الزائر لمقامها المبارك أن يحسّ بإحساس هذه اليتيمة وما جرى عليها وعلى أهل بيتها (عليهم السّلام)، فبمُجرّد أن يدخل مقامها الشريف خاشعاً متواضعاً سرعانَ ما ينكسر قلبه، ويجري دمعه على خدّه، إنّها تحرّك الضمائر الحيّة وتهزّ الوجدان من الأعماق:

رقدَتْ بِهِ بنتُ الحسينِ فأوشَكتْ

حتّى حجارةُ رُكنِها تَتَوقَّدُ

وقال الشاعر: كريمةُ سِبْطِ المُصطفى ما أجَلَّها

لها يَنحَني المجدُ الأثيلُ ويَخفِقُ

يتيمةَ أرضِ الشّامِ ألفُ تحيّةٍ

إليـكِ وقـلبي بالمـودّةِ يَنطِـقُ

وإلى شمالِك هناك قبّةُ المكتبة الظاهريّة (٦٧٨ هـ الموافق ١٢٧٦ م)؛ أغزرُ المكتبات في العالم الإسلاميّ، يرقد تحتها سلطان مصر والشّام الملكُ الظاهر بيبرس البندقداري، يحدّثك عن معركة عين جالوت، وما حصل للمغول في ذلك العصر، وقد خرّجت على مدى ثمانية قرون جهابذةَ العلماء والمجدّدين.

ولا تذهب بعيداً أيّها الأمير، فأمامها مباشرة ترى أختَها الكبرى المكتبةَ العادليّة، التي تضمّ سلطاناً آخر؛ هو الملك العادل سيف الدّين أبو بكر أحمد بن أيّوب بن شادي الملقّب بالملك العادل (٥٣٨هـ – ٦١٥هـ) شقيقُ الملك النّاصر صلاح الدّين الأيوبيّ، و أحدُ ملوك الدولة الأيوبيّة، يحدّثك عن مآثره الّتي شابهت أعمالَك؛ كبناء القلعة وتجديد معالم دمشقَ . . .

يسأل الأمير: أيُّ قلعة ؟

يردّ الملك العادل: قلعةُ دمشقَ ؛ إنّي تلقّفتُها من إرث السلاجقة متهالكةً صغيرة، مُنجِزاً رغبةَ أخي صلاح الدّين الذي شغلته الحروب الصليبيّة عن تجديدها ، وبعد موته نقّبتُ حجارتها حجراً حجراً بين باب السّلام وباب الجابية، متّكئاً على السّور، تاركاً لأهل دمشقَ ظهراً يحميهم لدهورٍ من جَور المعتدين، وملجأً يؤمّن خوفَهم في أيّام النّوائب.

قال الأمير: أرى على بُعد عدّة أمتار ضريحَين شامخَين معاً .

قال مُخاطبُه مبتسماً : سنكمل لنصلَ إلى سيّد السّلاطين وشيخ المجاهدين صلاح الدّين الأيوبيّ ؛ الملك النّاصر أبي المظفّر صلاح الدّين ، يوسف بن أيوب (٥٣٢هـ – ٥٨٩هـ / ١١٣٨م — ١١٩٣م) سيّدِ التّسامح وأكثرِ النّاس تقديراً في العالَمين الشّرقيّ والغربيّ، يبعدُ عنك أقلّ من مئَتي متر؛ هناك تحت القبّة الآجريّة، يصرخ مخاطباً : أهلاً بك في أرض السّلام ومملكة السّماء ، ويشير بيده إلى الوراء، أنْ ألقِ التّحيّةَ على معلّمي وسلطاني، مَن . . ؟

السّلطان نور الدّين محمود زنكي؛ التّقيّ صاحب الفضل في العلم والحرب، هناك تحت قبّة المكتبة النوريّة يشاركك حُبَّك الصّوفيّ ومنهاجَ درسك الفقهيّ أيها الأمير.

وقع نظر الأمير على أعمدة شاحبة، نقش عليها التّاريخ حكاياتٍ، وارتسمت في عينيه تساؤلاتٌ كثيرة، أتته الإجابةُ من رفقاء الدلالة: إنّها – أيها الأمير– حكاياتُ العصور وقصص عبادة الآلهة، من دمشقَ تبدأ الحكاية؛ حكايةُ الإله (حداد الآرامي) إلهِ الخصب والمطر والرّعد، دلّنا عليه حجرٌ وحيد للملك حزانيل الآرامي، لبِثَ سيّدَ البقعة لعقود، أراح (حداد) ، وأعطى الرّمحَ لـ (جوبيتر) إلهِ الشمس الرومانيّ بمعبدٍ مهيب من إبداع (أبولودوروس الدّمشقيّ) باني البانتيون العظيم.

بقي معبدُ جوبيتر منارةَ العبادة في أرض الكنعانيين، وخِلفةَ روما في الشّرق، وقبلةَ الحجيج ومذبحَ القرابين، مُلقينَ هنا أثقال دُنياهم، إلى أن وصلت رسالات السّلام من أرض السّلام إلى أرض السّلام؛ تعاليمُ المسيح إلى أهل الشّام، فنفضت غبارَ الوثنيّة إلى دين السماويّة المسيحيّة، ألقى جوبيتر إكليل الغار، ليصبح المعبدُ كاتدرائيّةَ يوحنّا المعمدان، فاختلفت العقائد وبقيت الوجهة والحجيج يقصدون منارة الهدي في وسط دمشقَ.

إنّ بيوت حارة الأشراف والعمارة بقربها – أيها الأمير – قطعةٌ من معبد إله الشّمس وكاتدرائيّة يوحنّا، وتحفظ في جدرانها الكثير من همسات الدّين والتّسامح والعظمة.

فتنادي مَأذنةُ عيسى عليه السّلام: ماذا عن الجامع الأمويّ؟

فتُعطى الإذنَ بمواصلة الحديث لتقول: إنّني إرثُ الخلفاء من أمثال الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام، ومن بعدهم عمر بن عبد العزيز، إنّي شامةُ دمشقَ، وتاجُ حمامة المدينة، الجامعُ الأمويّ الّذي تركه الوليد بعد كنيسة يوحنّا المعمدان منارةً وجامعة للعلم لقرونٍ، ليروي قصة التّسامح وأخوّة الفنّ والإنسانيّة، وحكايةَ جهابذة العلماء الّذين كتبوا في صحن المسجد وتحت أروقته أمّهاتِ الكتب، من الغزاليّ إلى جلال الدّين الرّوميّ والإمام النوويّ . .

وفيه استراح الرحّالة القاصدين بدعةَ الزمان مهما طال الترحال كابن بطّوطة والقرطبيّ . . .

تُكمل المَأذنة الحديث بفخرٍ: حظيتُ بصحبة نبيّ اللّه يحيى بن زكريّا عليه السّلام، وابنِ خالة مريمَ العذراء أمّ المسيح، ذبيح المحراب الصالح الرضيّ، فقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يا يَحيى خُذِ الكتابَ بقوّةٍ وآتيناهُ الحُكْمَ صبيّاً * وحناناً مِنْ لَدُنّا وزكاةً وكانَ تَقيّاً * وبرّاً بِوالدَيهِ ولَمْ يَكُنْ جبّاراً عَصيّاً * وسَلامٌ عليهِ يومَ وُلِدَ ويومَ يَموتُ ويومَ يُبعَثُ حيّاً﴾ سورة مريم.

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وزَكَرِيّا ويَحيى وعِيسى وإلياسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحِين﴾

ثمّ تصرخ المَأذنة بعزّة التفرّدِ لتقول: عندي النهاية، نعم عندي. . . وأيُّ نهاية؟

نهايةُ الظلم بنزول السيّد المسيح المخلّص، هابطاً من السماء على صدري.

وتشير إلى الأمير: أنِ انظُرْ إلى جبل قاسيون، انظُرْ لترى مقام الأربعين هناك، انظُرْ إلى مغارة الدّم . . . أيّ دم ؟

إنّه دم هابيل الخطيئة الأولى؛ أوّل ظلمٍ، وسنّة الغدر الّتي لنا منها نصيب إلى يومنا؛ حيث أخفى قابيل الجثّةَ بدلالة غراب ضعيف ليواريَ سوءةَ أخيه، ولكن لم يستطع أن يواري دمَ القتيل، فأوحى اللّه إلى الصّخر أنِ اشربِ الدمَ ليكونَ عبرة السوء لبني آدمَ جليّاً على صخر أحمر.

تُكمل المَأذنة في السّرد بعد سؤالها: لماذا أربعون ؟

إنّهم أربعون نبيّاً، هداهم اللّه إلى هذه المغارة، إلى أن وُشِيَ بهم، فكان أنِ انشقّت المغارة مفسحةً طريقاً لهم للهروب، ومدّ المَلَك جبريلُ عليه السّلام يده ممسكاً سقفَ المغارة من السقوط؛ لترى أثرَ يده في السقف، ولا تزال تشمّ رائحةَ المسكِ في الصخر من أثرهم حتّى اليوم.

تُنهي المَأذنة الحديث قائلة : هناك سالت أوّلُ نقطة دم، وهنا آخرُها على يد المسيح عليه السّلام.

نظر الأمير عبدُ القادر حوله، لم تغِبْ عن ناظريه في كلّ شبرٍ من محيطه – مسجدٍ أو كنيسة أو حمّام أو مكتبةٍ – عرائشُ العنب وأغصان النارنج وهمساتُ الطيور، فنِعمَ الجوارُ والمقام حيُّ العمارة.

نزل الأمير من سطح الدار، ورمق الحارةَ من كوّة المنزل، مطيلاً النظر بصمت، ثمّ قال: تكلّمْ مَن هم أهلُ الحارة من الجيران؟

إنّها حارة الأشراف، واكتمل الشرفُ بقدومك أيها الأمير.

أيُّ أشراف ؟ ؟

أتاه الردّ: ومَن أشرفُ عندَنا من أحفاد الرّسولِ محمدٍ ﷺ ، مَن أحقُّ منهم بالتبجيل في أرض الشّام؟ شامِ الرّسول الذي دعا لها بالبركة، فعن زيد بن ثابت الأنصاريّ رضي اللّه عنه، قال : سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: طُوبى للشّام، طُوبى للشّام ! قلتُ: ما بالُ الشّام؟ قال: الملائكةُ باسطو أجنحتِها على الشّام) .

ومانزال نعيش ببركة دعائه، دعا لنا و لم يرانا، فكان حقاً علينا أن نردّ ذلك لأحفاده من صُلبه، أعطيناهم لقبَ الأشراف، ولم نوفِّهم حقَّهم وقدرَهم العظيم، وكانوا على قدر التسمية و العظمة، ظلّوا أخوةَ الشّام وجيرةَ الدّار، أخذوا معنا من كلّ حزن حظّاً، وما غابوا من فرحة ولا مولدٍ يوماً، من صغائر الأمور إلى كبارها كانوا كأشجار الحَور وقت الحرب والفتن، لواءُ دمشق بيمينهم، والبركة تخرج من شمالهم ، يباركون بها كبارَ السلاطين

فمنذ القِدم مسحوا على درع محمود الزنكيّ في توحيده البلادَ، وعلى رأس صلاح الدّين ليستعيد مملكة السّماء، وكذا الملوك و السلاطين من بعدهم إلى اليوم.

ردّ الأمير: نِعمَ الجيرانُ من أولاد العمومة و أخوة الرّوح والمقام.

وما رائحةُ البانِ والبخّور والمِسك منذُ وصلتُ دمشق؟

إنّه ميقاتُ الحجّ، ومَحمَلُ الحجّ الشاميّ في طريقه من هنا، حيث جرت عادة الحجّ من قرون باجتماع طالبي المغفرة من الحجاج المسلمين القاصدينَ الحرمَ المكيّ في الحجاز، باجتماعهم في دمشق منطلقين من هذه الحارة العتيقة، استطاعوا للحجّ سبيلاً ليُتمّوا دِينَهم، ويَقضوا ركنَ الإسلام الخامس، يجتمعون برفقة المحمَل الشاميّ، برفقة المصاحف الملفوفة بالحرير وزيوت الحرَمين التي تُضيء لسنة قادمة، على نقر الدّفوف وأصوات البهجة في مناسبة العام، في كلّ الدنيا فرحةُ الحجّ للحاجّ وحدَه، ولكن في دمشق فرحةٌ للجميع بهذا الموكب المهيب، وبصحبة الضيوف الذين يملؤون خاناتِها وشوارعَها، تودّعهم على حالٍ، وتستقبلهم بعد شهور قليلة بقلوب طاهرة نظيفة، غفر الله لها ماتقدّم من ذَنْبهم؛ مواليدَ جُدد كما ولدتهم أمهاتُهم، تعرفهم من وجوههم التي ألِفت التحيّة على رسول الله ﷺ ، راجين العودةَ و شاكرين أهلَ الحيّ والشّام لحسن ضيافتهم في رحلتهم الأعظم في حياتهم.

بقي حيّ الأشراف قبلةَ الوداع ليس للحجيج فقط، وإنّما لأعزاء آخرين، لكن ليس لهم عودة إنّهم آل بيت الرسول ﷺ الذين يسجون على مصطبة مسجد الحيّ؛ ليودّعوا الأحبّة من الأخوة و الأبناء والمتبرّكين بحبّ النبيّ ﷺ وبحبّ أحفاده الذين بقي منهم الكثير من أهل الحيّ كآل الكتّانيّ و الحمزاوي وغيرهم.

نزل الأمير الدّرَج إلى باحة الدّار، فرأى جداراً مهيباً عالي الأكتاف أمامه، فقال :

ماهذا ؟

إنّه سورُ دمشق.

سورُ دمشقَ في بيتي ؟

نعم، جدارُ منزلك سورُ المدينة.

أخبرني عنه يا بُنيّ.

كُرمى لك يا أمير، لم تأمن الشّام منذ ولادتها على روعتها، كحمامة يتربّص بها الجميع، فاتّخذت لنفسها طوقاً، كان أوّلَ سورٍ بعد طوفان نوح عليه السّلام كما ذكر ذلك ابن عساكر في كتابه (تاريخ دمشق). وما إنِ استقرّت السّفينة على الجوديّ حتّى نزل أولاد نوح عليه السّلام يمشون في الأرض عمراناً، فخطّوا دمشقَ مستقرّاً، ووضعوا للعروس سواراً، أبدعه مَن؟ أحفادُ نوح عليه السّلام من الآراميين، وتبعَهم اليونانُ في حفظه وتجديده، ثمّ الرومان والأمويّون و السّلاجقة و المماليك والعثمانيون، تحكي لك حجارةُ السّور قصةَ حضارات؛ فاتحين و غُزاة، عادلين وطُغاة، ممالكُ أزالت كلٌّ منها الأخرى، ولكنّ الحجارةَ لم تفعل ذلك، بقيت معاً كلوحة فسيفسائيّة تحكي أخوّة الإنسان و وحدة التاريخ، وكانت كتاباً لطلاب الحضارة، تحاكي طوقَ الحمامة الذي تُكمل جمالَه الأسطوريَّ أبوابُ دمشقَ السّبعة: باب توما وباب الجابية وباب الفرج والباب الشرقيّ والباب الصغير، ويجاورك منها اثنان اسمُهما السّلامُ و الفراديسُ، يعكسون روحَ دمشق والعمارة، من السّلام الذي يسود، والفراديس الذي يستقبل حدائقَ غنّاء لا تشبه إلا الجنان بوصفها، غابت الجنانُ من العمران، و بقي يذكّرنا بها بابُ الفراديس.

وصوت هديرٍ عظيم يحمل برودة الثلج يصدح من وراء السّور، إذاً ليس وحيداً !!

عناقٌ طويل بينه وبين نهر الذهب على لسان الإغريق بردى .. بردى؟

ومن قال : إنّ التاريخ لا يظمأ؟ إنّه مِدادُ الخطّاطين، ولون ريشة المبدعين، وسُقيا البنّائين، كيف لخضرة فسيفساء الأمويّ أن تظلّ نضرة، وتبقى سقوفُ الدّور تقطر من أطراف زخارفِها قطراتُ النّدى ؟!

من أين لشجرة النارنج أن تشرب، ولرياحين الفيحاء أن تُلقي شذاها، وللنّوافير أن تعكس ألوان الشّمس في يوم صيفيّ؟ أوَليس من هبةٍ وراءه ؟! إنّه بردى.

ليس ببعيد سهلُ الزبداني شمالَ المدينة، تُنتقى حبّاتُ الثلج بما يليق بسقي السلاطين والملوك، يدخل دمشقَ من شمالها كما يدخل الفاتحون، لكي لا يُطيل انتظار المتوضّئين في المساجد، والمتعمّدين في الكنائس ، وريَّ ظمأ العطشى من سُبل الأزقّة، ورفقة الحمّامات والمدارس والرّياض،

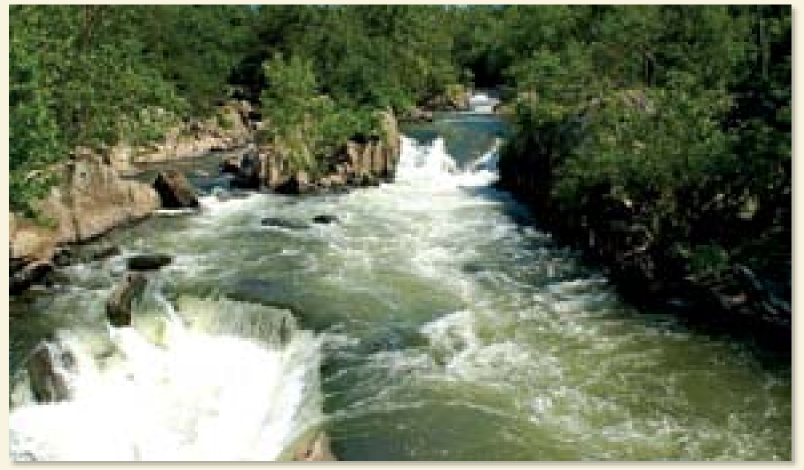

يفارق بعضُه بعضاً في سبعة شرايين إلى قلب دمشقَ؛ حيث يتفرّع عن الضفّة اليسرى قناتان رئيستان: يزيد وتورا، وعن الضفّة اليمنى: المزّاويّ والديرانيّ والقنوات وبانياس، وداخل المدينة المسرى الأساسي ثمّ إلى العقربانيّ والداعيانيّ، والفرع الذي يماشي سورَ الدّار هو تورا . إنّه بردى من المزّة وسفح الربوة إلى باب توما، مجاوراً في سيره قلعتَها وبيوتها، مستدلاً بصحبة صديقه القديمِ سورِ المدينة؛ ليوصله إلى غوطة دمشق، تفتح ذراعيها لاستقباله، إنّه كالرّوح للجسد، ومذاق المشمش والكرز، ورحيق زهرة الرّمان، وشراب عنب الجنان، لنرى بردى على صورة أخرى في مائدة دمشقيّة تحكي قصّة يوم صيفيّ، ما كان لولا نهرُ الذهب.

عكست شمسُ النهار الألوانَ من الزجاج المعشّق على وجه الأمير عبد القادر، كأنّها أشارت بأنّ هناك سحراً لم تره من قبل، اقتربَ بخُطا حثيثة، ودخل القاعة التي أرسلت إليه مئات الرسائل والأسئلة، من الكرسيّ الموزاييك إلى السقف ذي المنبت الإسلاميّ، والخزفيّات والزجاج والنحاسيّات والمقرصنات والأرضيّات . .

كلُّ شيء يضيء، أهيَ كنوزُ الملوك أم صنيعةُ جنّ سليمانَ بن داوود ؟ !

مَن صنع السيفَ الدمشقيّ يصنع كنوزاً كهذه، إنّهم شيوخ الكار التي تفخر بهم دمشقُ، الذين توارثوا فنّهم شيخاً عن شيخ مبدع، عن فنّان، لم تفرغ دمشق منهم أبداً، سامَحَ اللّه السلطانَ سليمان القانونيّ حين أخذ كبارَهم ليُبدعوا في اسطنبول، ويعلّموا الأتراكَ إتقانَ الفنون، لكن لماذا نبكي على السنابل ولدينا البذور؟ البذورُ التي نَمَت مرّة أخرى سنابلَ أطول، أشدَّ حرفة من الآباء، فالإبداع من وحي المعاناة أجمل؛ فكرسيٌّ بسيط تجلس عليه لدقائق، جلس أمامه شيخُ الكار لشهورٍ، إنّهم يحفرون الخشب ويبدؤون بإبداع الموزاييك، ليس لهم في الدنيا منافس ولا مثيل في تلك الصنعة، ولكن يقولون لك كما قال النبيّ ﷺ : (إذا عمِلَ أحدُكم عملاً فليُتْقِنْه) .

لعلّ الكلمة التي يستخدمها شيوخ الكار في دلالتهم على منتجاتهم – فيقولون: تلك القطعة – ما يوحي إليك بوعيهم أنّه فنّ وليس مجرّدَ كرسيّ أو لباس أو نافذة.

وإذا ما رمقت السقفَ رأيت النباتيّ من الإسلاميّ (العجميّ)، إنّه مِن تفرُّد دمشق، لا يُفارق العجميُّ سقفاً في دمشق؛ من الجامع الأمـويّ إلى الخانات والمدارس والمكتبـات والبيمارستانات والمنـــازل،

ساعات تطول والصانع الفنّان مستلقٍ على ظهره ينفّر الرسومَ بفُرشاته؛ ليبعث الدفءَ في خشب جافّ يستمدّ ألوانَه من الغوطة، كألوان الجنّة، لن تفارق عينيك روعتُها، فلا وِحدة هنا ورياحُ الأنس تأتيك من أعلى النجوم، مفعمة بألوان السّلام الخضراء والزرقاء والمذهّبة تستمرّ معك حتّى الفراق.

وكذلك الفنّ في النحاسيّات من القناديل والصّدور والمصبّات والتّروس، حيث يخبرنا أحد شيوخ الكار قائلاً : خُلقت مع النحاس، تعاملت معه ليس كمعدن ولكن كرفيق، لينثني كما أريد، وأُكلّمه فيُصغي أكثرَ من أولادي، فهو صديقي قبل مجيئهم ، تركوني ومازال بصحبتي.

هكذا يتكلّم صنّاعُ دمشق، يبعثون الروح في الجمادات، فما عادت صامتةً فهي تتكلّم، ولكن يسمعُها مَن يفهمها فقط.

تُطيل العدّ في المهن والكارات التي تماثل بعددها جُلّ نسبة العائلات، ممّا يدلّ على الرابط المتين بين الصنعة والصانع، حتّى يتسمّى بها وتُنسب إليــه: كعائلة القناديليّ والعجميّ والحدّاد والنجّار والبغجاتيّ والصوّاف والسوّاس والعطّار . . . .

يدخل الأمير من أحد أبواب الدارِ الأربعةِ مسكنَه طيّبَ العيش في دار الأشراف والتّاريخ؛ تلك اللّوحة الفسيفسائيّة على رقعة من الأرض تبلغ ١٨٠٠ متراً مربعاً وبمساحة طابقية تزيد على ٣٥٠٠ متراً مربعاً ، في ٣٨ قاعة لكلّ منها رونق وبهاء، يبلغ ارتفاع جدرانها ١٢ متراً من الشموخ.

يتنقّل الأميرُ بين فُساحاتها السماويّة الثلاث، ينتقي إحداها في صباح الأيّام بجوار إحدى البحرات الستّ؛ ليتّخذ تحت شجرة النارنج الدانيةِ قطوفُها في نهار وديع مَجلِساً بصحبة الجيران والأحبّة والأولاد والأحفاد، ومع مَن يأتي من ضيوف كبار الدولة والأشراف والعلماء والشيوخ والضعافِ المساكين ومن أبناء السبيل، فهو وِجهةٌ وقُطب، حضن دافئ، مائدةٌ للجياع، ودار حكمة، هكذا أمست دار الأمير.

لم يؤرّق صفوَ الأمير شيءٌ منذ وطِئت قدمُه برَّ الشّام، فلم يفتر لحظة عن العمل والسّعي من داره إلى الأمويّ جارِه؛ يعلّم الناس أصولَ دينهم، ويتفقّد أحوال الكثير منهم، ولكن نقول كما قال الشاعر أبو البقاء الرنديّ :

لكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نُقصانُ
فلا يُغرَّ بطيبِ العَيشِ إنسانُ
هيَ الأمورُ كما شاهَدْتَها دُوَلٌ
مَن سرَّه زمنٌ ساءَتْه أزمانُ
ودوام الحال من المُحال . . .

اشتعلت نار الفتنة في الجوار؛ في جبل لبنان بتحريض المترّبصين الذين يريدون الحرب من دولٍ لا تعرف روحَ الشرق ولا سماحةَ العيش، فكانت الفتنة العظيمة، اقتتل فيها الدروز والمسيحيّون، وجرت على المسلمين أيضاً، وطال اشتعالُها ،حتّى وصلت إلى أعتاب دمشق، بدأت فيها أحياء بتحريض مستمرّ وسياسة مدروسة؛ فلم تترك بيتاً من البيوت، غاب هديلُ الحمام وأصواتُ طَرْقِ النحاس وهمهمةُ الأسواق، لتسمع بدلاً عنها كلمات لا توحي بمحبّة ولا بُودًّ، تشمّ بين أحرفها رائحةَ الدم، فالنساءُ والأطفال إلى الأمويّ . . إلى الكنيسة . . إلى الكنيس، ما ألفنا حديثاً كهذا، كنّا نعلّم الناسَ أنّنا أخوة في الإنسانيّة، في دمشق في الياسمين في شجرة الكبّاد، مَن ذا الذي نسَبَنا إلى ديننا وأنسانا أخوّتنا، أوَ ليس محمّدٌ والمسيحُ وموسى إخوة ؟

ذُبلت العرائش، وغادرت دودةُ القزّ أشجارَ التوت، وغابت رائحة الياسمين، صاح الأمير بأعلى صوته: أنِ استفيقوا، مَن الرابح؟ ألسنا كلّنا خاسرين؟

دعاهم إلى داره، وخاطبهم: أنا المسلم، سعيدٌ بضيافتكم، وأنتم المسيحيّون واليهود، أخذ يتلو عليهم آياتٍ من سورة مريم عن قصّة السيّد المسيح وأمّه العذراء، التي توضّح مكانة المسيح لدى المسلمين، وأكمل من سورة البقرة قصّةَ موسى كليم اللّه، قصّة العبور وجبل الطّور مع هارون ويوشعَ بن نون عليهم السّلام، كما قصّ المسيحيّون رسالاتِ السّلام واحترامَهم للإسلام، و ردّ اليهودُ ببشرى التوراة بقدوم محمد ﷺ .

كلّ ذلك تُخبرنا عنه جدرانُ الدار باليوم والتفصيل، تُبلّغُنا عنه الثريّاتُ وأشجار الدار فخورةً بهذا الإنجاز، وأيُّ إنجاز . . نصرٌ على الطائفيّة ودعاةِ الفتن، وإنقاذٌ لشجرة الياسمين التي كاد عطرها يزول ويفارق صحبةَ النارنج، لنرى دمشقَ تعود دارَ السّلام ومملكة السّماء .

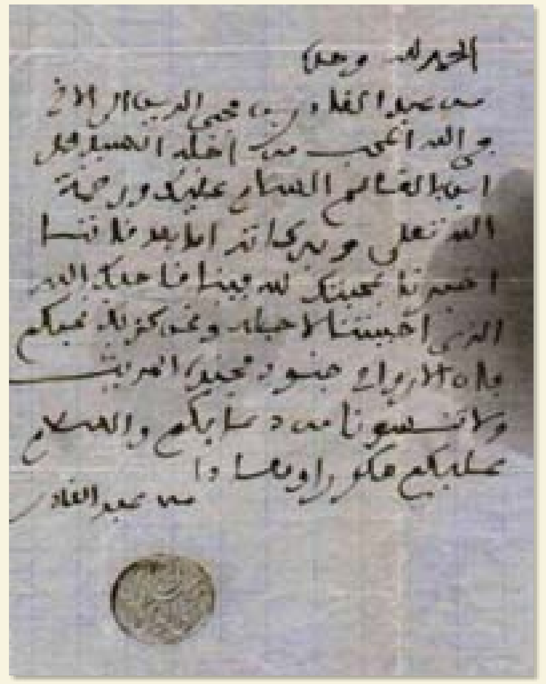
الحمد لله وحده

غادر الأمير الدنيا إلى السّماء لتنتهي حياته التي كانت كلّها عملاً وتضحية وبطولة، حياة شغلته وشغلت الكثيرين من عشّاق البطولة.

أوصى الأمير بأن يُدفَن بجوار الشيخ الكبير محيي الدّين بن عربيّ (المتوفّى عام ٦٣٨هـ – ١٢٤٠م والمدفون في سفح جبل قاسيون) مات بعده بستّمئة عام تقريباً، لم يرَه يوماً، ولم يعرف له مَجلساً، فمِن أين أتت الصحبة؟ إنّه رفيق الطّريق، نعم الطريقُ إلى اللّه، منهج المتصوّفة المسلمين، ولكن لا تنفع القربى في الطريق إلى اللّه، كما لا تنفع الدّنيا كلُّها، ولكن تنتفع القلوب والرّوح من نفحة الخالق، لعلّنا لن ندرك ما يتبحّرون فيه، وليس لنا من سبيل إلى إيمانهم العميق، فإنّهم الأخوة الذين نقلت الكتب والدواوين والألسنة عن اتّصالهم الروحي الذي لا يعرف زماناً ولا مكاناً، ويسبحون في عالمهم الخاصّ القريب من الحضرة الإلهيّة، خارجين من نطاق الجسد القيدِ الأخيرِ للرّوح.

وقد وُريَ الثّرى في سفح قاسيون، فنعِمَ كلُّ صاحب بصاحبه، غادرَنا وبقيت ذكراه، إنّه القائد الإمام الأمير الزاهد الغنيّ بالتّقوى، الفقير إلى رحمة اللّه تعالى.

بقيت دارُ الأمير قبلةً لمَن يطلب الذّكرى، فما فرغَت من ضيفٍ كبير ولا صغير يصافحون مَن بقي من أبنائه وأحفاده، فيحكي حكواتي الشّام كيف أنّ الملك فيصل بنَ الحسين بادرَ منذ دخوله إلى دمشق إلى زيارة دار الأمير، وسمّي الشارعُ الّذي مرّ به وصولاً إلى دار الأشراف بشارع الملك فيصل، وصافحَ خلال زيارته ورثةَ المسك من أبناء الأمير وأحفاده، مذكّراً بمناقبه، ومشيداً بدوره وفضله على الأمّة العربيّة والإسلاميّة.

وقد سخر اللّه لدار الأشراف مَن يقرأ التاريخ، ويعرف لكلّ تحفة حقَّها وتقديرَ أمرها، فبعد أن امتلك الدكتور سمير الغضبان الدّارَ قام بعمل متواصل استمرّ لسنين، مستقدماً أمهَرَ شيوخ الكار في الترميم؛ بدءاً من الأرضيّات والجدران العتيقة إلى العجميّ والموزاييك والخشبيّات وغيرها، فنفضَ الغبارَ عن دارٍ عاد يحكي قصّة حضارة لمَن يودّ سماعَها، قصّة بداية التاريخ ونهايته في دار دمشقيّ في حيّ الأشراف.

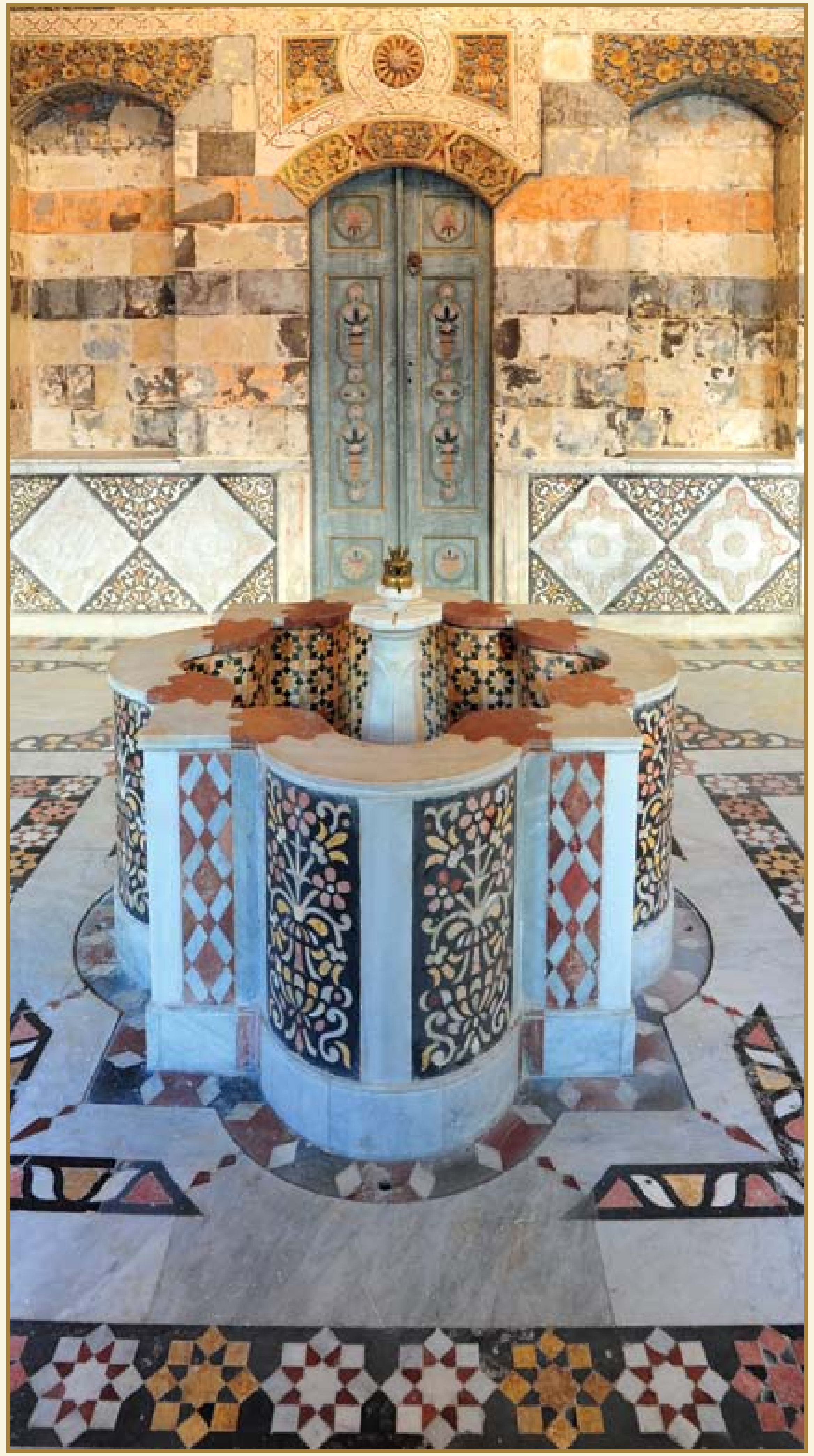

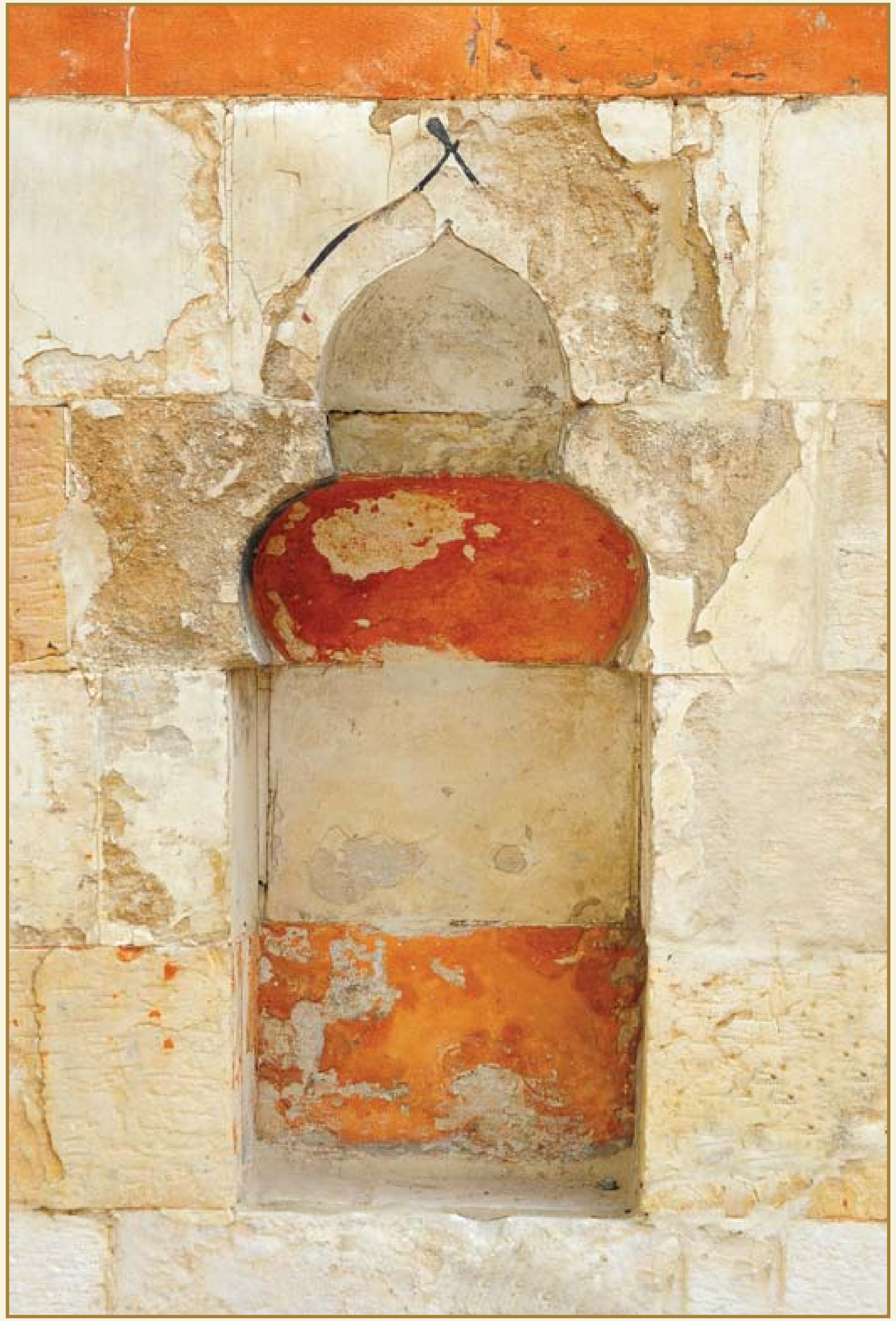

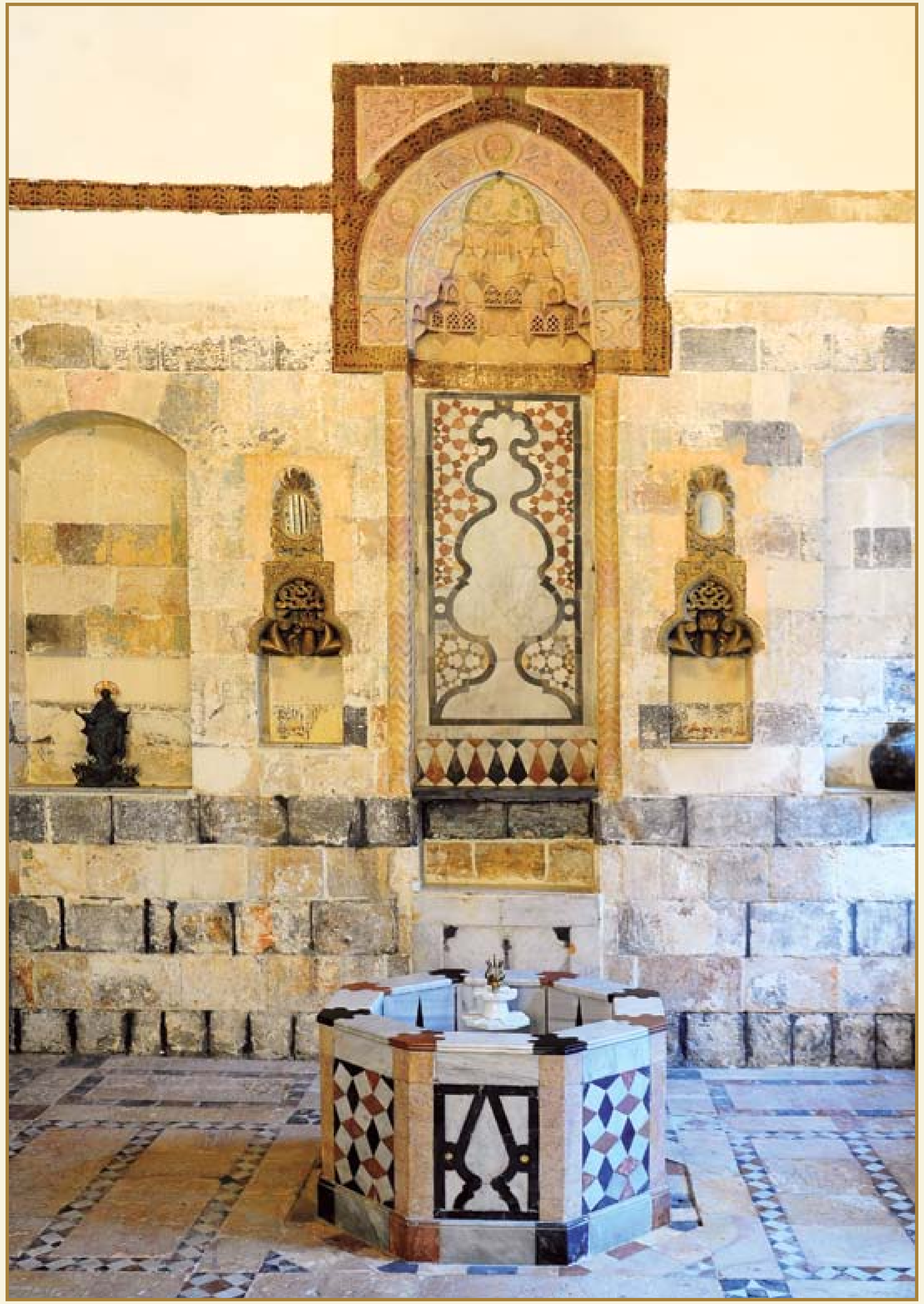

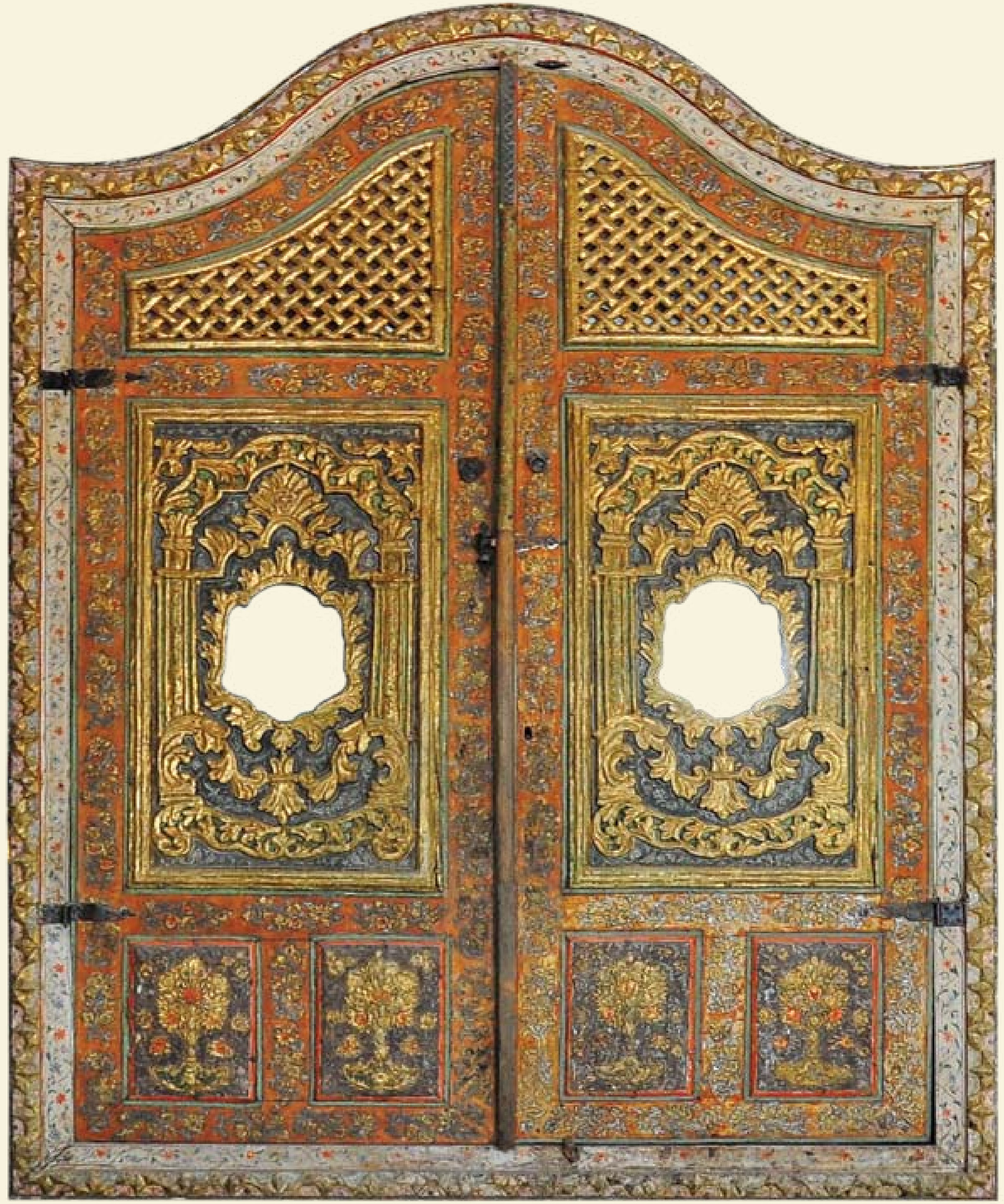

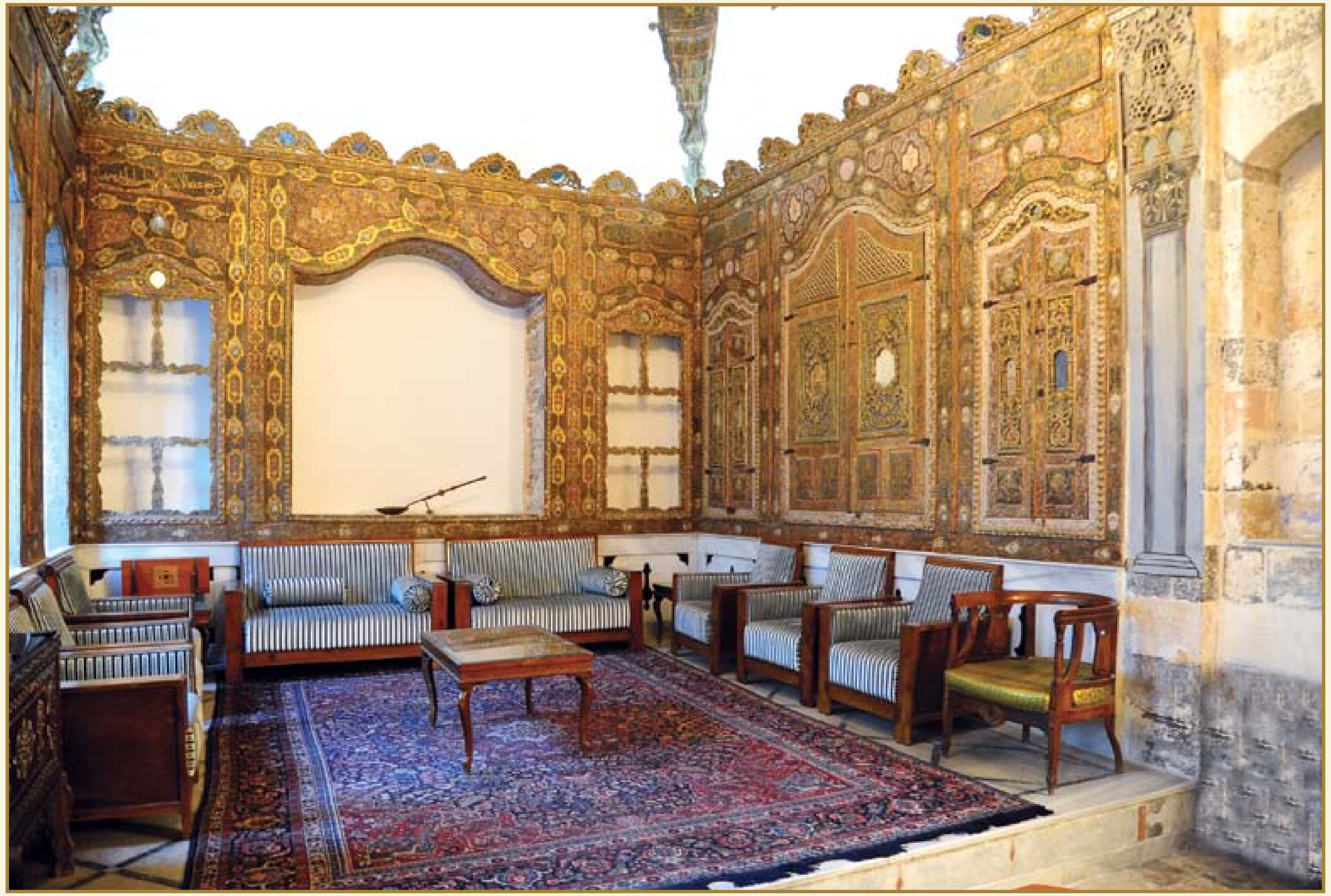

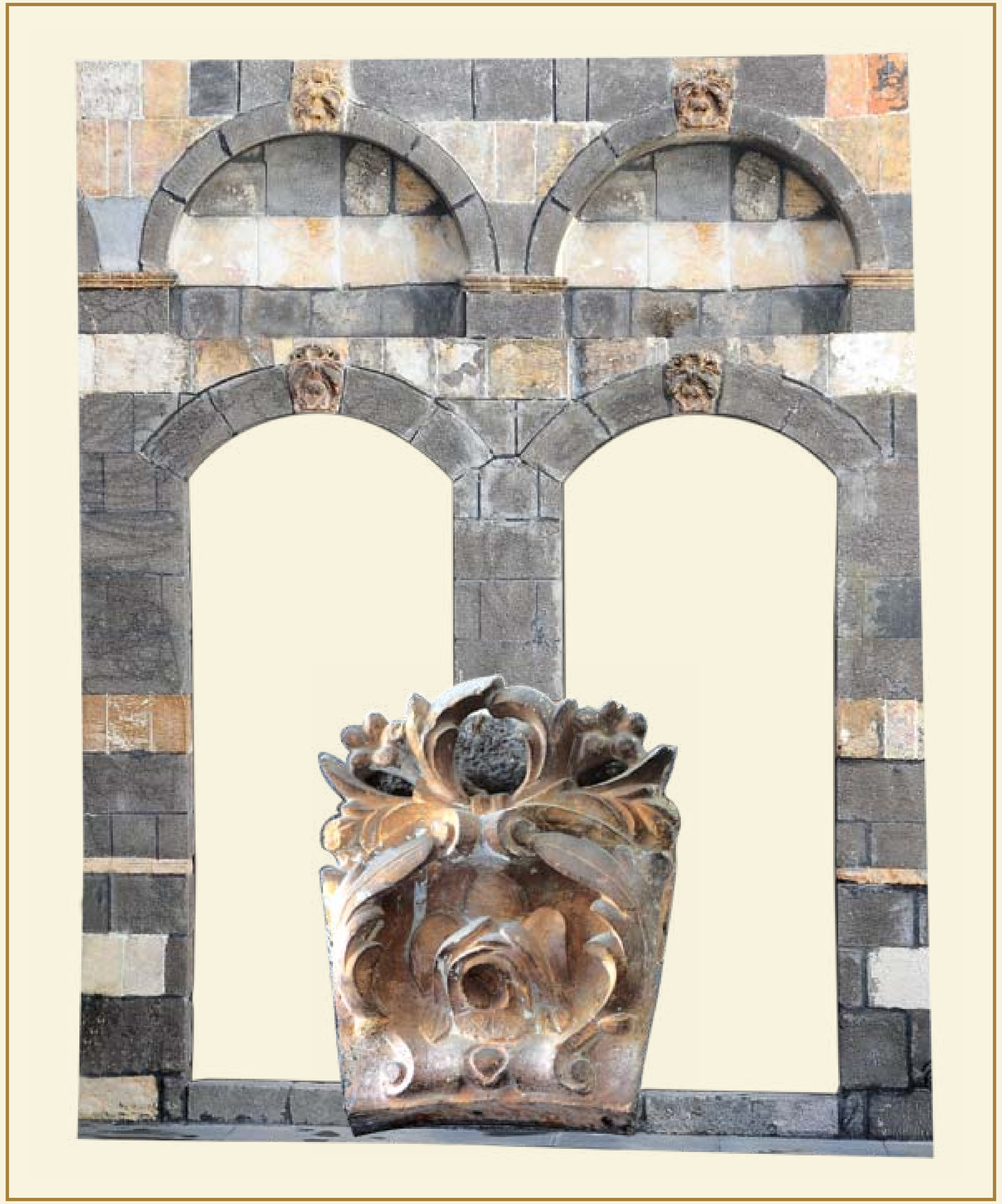

١٣٠٤

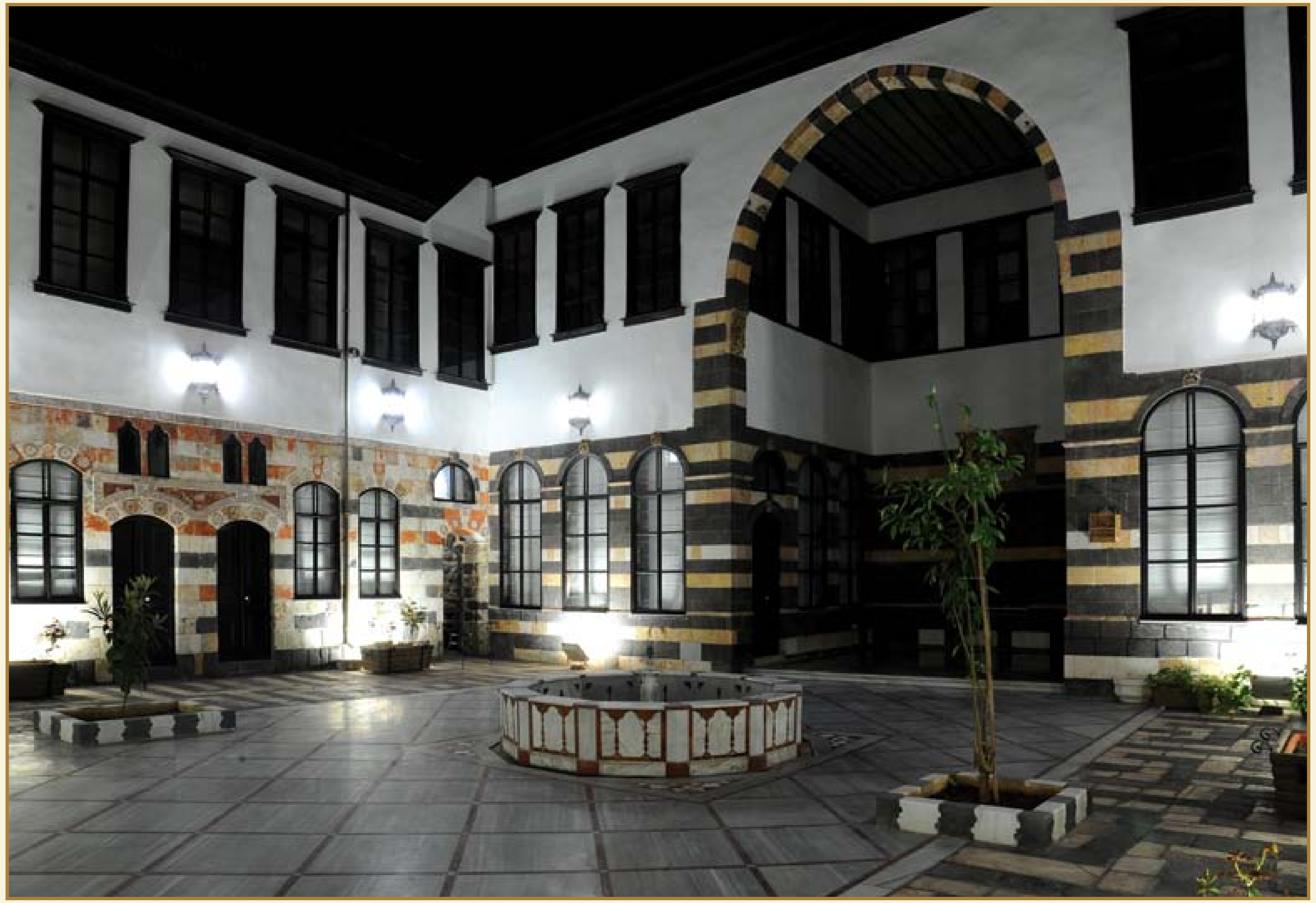

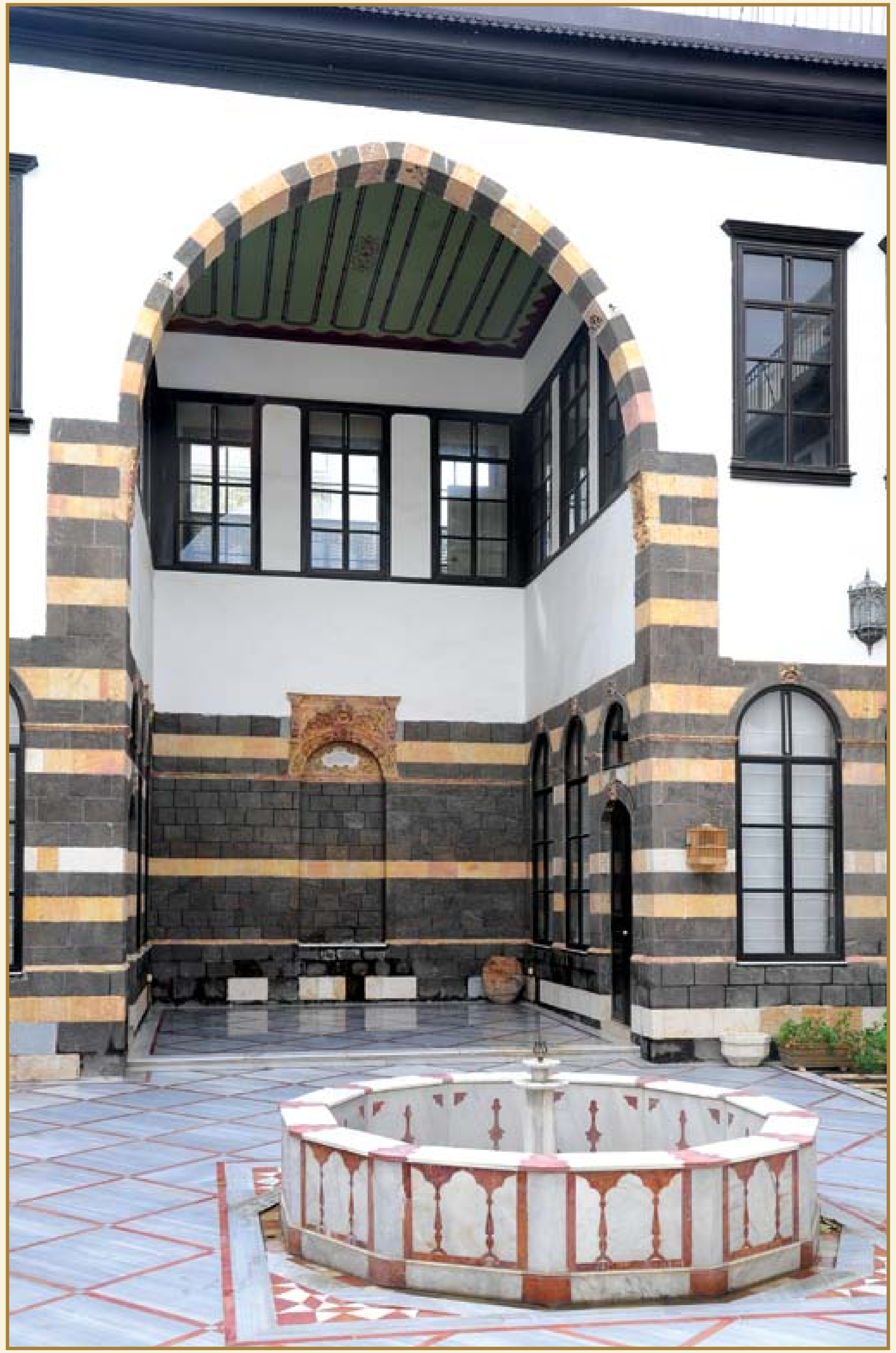

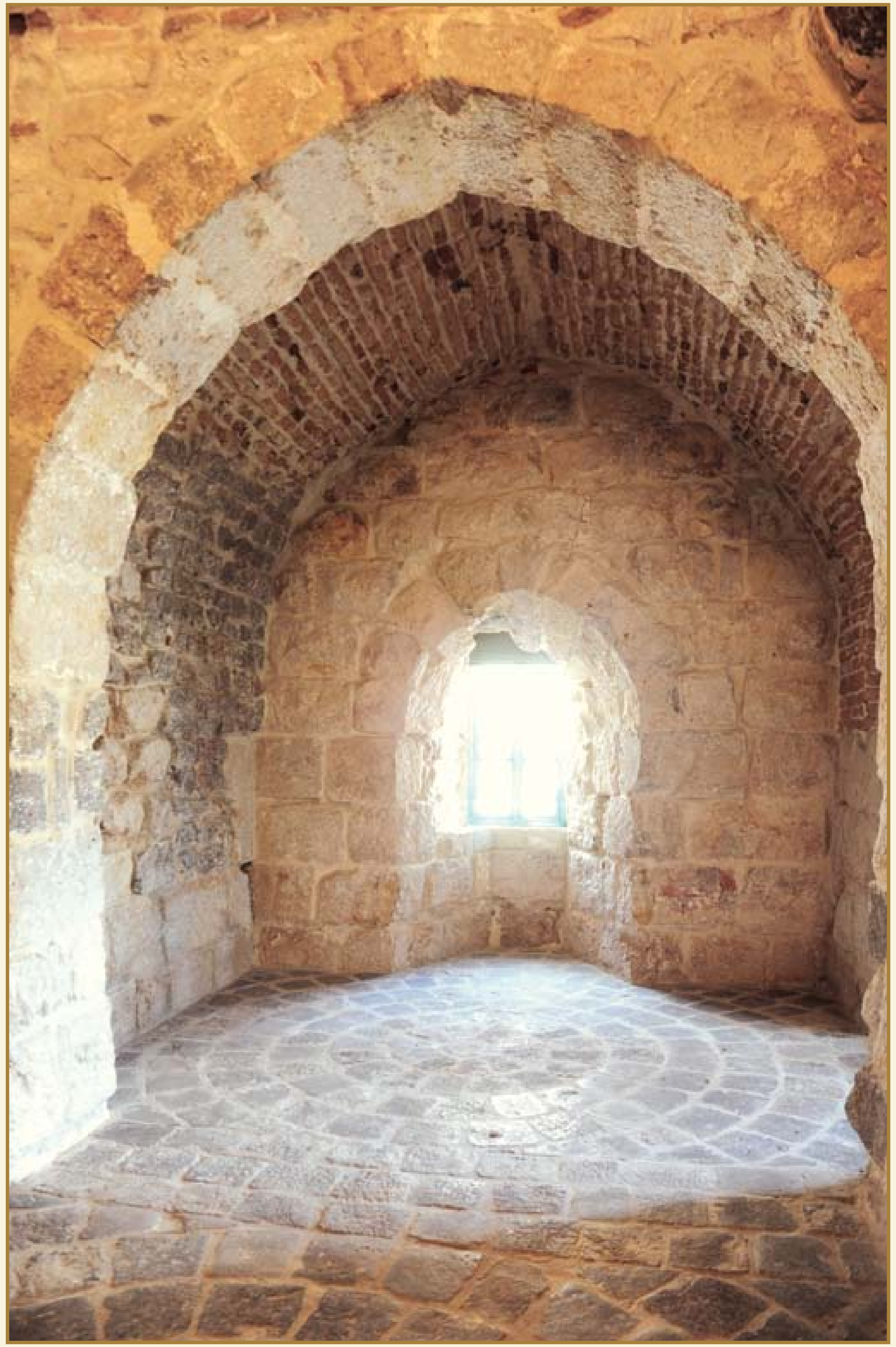

باب السلام
باب الفراديس
باب الفرج
دار الأشراف
باب توما
باب شرقي
باب الجابية
باب الصغير

نهر بردى

الجامع الأموي
مقام السيدة رقية
دار الأشراف

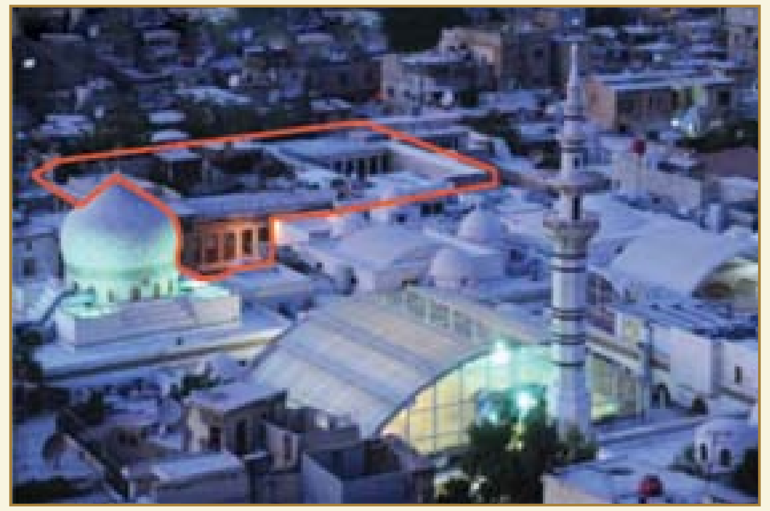

سورية – دمشق – عمارة برانية – حارة نقيب الأشراف
عقارات رقم (992 /1 – 992 /2 – 980 /8)
Email : abrasamir@bk.ru